التراث والرغبات المتماهية

التراث مواجهة :

بدأ لجوء الشاعر إلى التراث في مرحلة الإحياء – بدافع القومية – ليؤكد أصالته في وجه الخطر الداهم ، الساعي لطمس ملامحه القومية مع بداية حقبة الاحتلال الإنجليزي لمصر عام ١٨٨٢م ، وانتشار الاستعمار الأوربي في معظم الدول العربية، خصوصاً في شمال أفريقيا ، حيث تعرضت لمحاولة فرض لغة المستعمر ،وهدم ملامحها العربية ، و" في مواجهة هذا الخطر تشبثت الأمة بجذورها القومية ، تستمد منها إحساسا بالأصالة والعراقة ، وكان تراثنا القومي هو أقوى هذه الجذور وأصلبها وأقدرها على منح الأمة إحساساً قويا بشخصيتها القومية في مواجهة محاولة القضاء على هذه الشخصية "[1].ولهذا " لم ينقطع حركة إحياء التراث عن حركة اليقظة القومية ، وإنما كانت عنصراً أساسيا في برنامجها وموقعاً من مواقع النضال في الميدان العام الذي تقاسمه الرواد فيما بينهم "[2] .و " حين تتعرض أمة من الأمم لخطر داهم يهدد كيانها القومي فإنها لا تلبث أن ترتد تلقائيا بحركة رد الفعل إلى جذورها القومية ، تتشبث بها في استماتة لتؤكد كيانها في وجه هذا الخطر الداهم ، والتراث واحد من تلك الجذور القومية التي ترتكز عليها كل أمة في مواجهة أية ريح تحاول أن

1- د. على عشرى زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربى المعاصر ، ص٤٩.
2- د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) : تراثنا بين ماض وحاضر (القاهرة : دار المعارف ١٩٧٠)ص٥٧.

تعصف بوجودها القومي ، فتمنحها إحساساً قوياً بشخصيتها القومية ويقيناً راسخاً بأصالتها وعراقتها "[1].

وقد ازدادت رغبة الشاعر في اللجوء إلى التراث بدافع القومية والتشبث بجذوره العريقة في النصف الثاني من القرن العشرين ، حيث تعرض مجتمعه لهزتين عاصفتين من الإحباط والهزيمة من قبل العدو المتآمر على مقدراته ، فكانت الهزة الأولى متمثلة في هزيمة ١٩٤٨، التى تعد بمثابة الطعنة العميقة في قلب الأمة العربية، وقد استطاعت تلك الهزة أن تخلق نوعا من فقدان السيطرة على الذات

ثم أتت هزيمة يونيو ١٩٦٧على كيان الإنسان المصري والعربي بصفة عامة ، والشاعر المعاصر بصفة خاصة ، حيث أفقدته توازنه ، فأحس بأن الهزيمة أحدثت نوعا من الخلل في بنية المجتمع العربي عامة والمصري خاصة ، و" في ظل واقع يموج بالهزائم العسكرية والنفسية لا يجد بدا من التمسك بجذورهم القومية ، علها تكون واحة للنجاة من تخبط المعايير الاجتماعية والسياسية والعسكرية " [2].

ونتيجة لتلك الهزيمة عاد شعراؤنا إلى تراثهم بفلسفة جديدة وبإدراك جديد لطبيعة علاقة الشاعر بمورثه فانحازوا إلى تراثهم يستلهمونه ويستمدون منه القوة في مواجهة التحديات القائمة ، وازدادت الرغبة في "تعرية الواقع المتردي عن طريق استحضار واقع مزدهر في ذلك الواقع أو ربط هذه النهضة بجذورها التحتية التي تصل إلى الماضي "[3].

التراث قناعاً:

1- على عشرى زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربى المعاصر ص٤٥.
2- د . مراد عبد الرحمن مبروك : العناصر التراثية في الرواية العربية ، ص٣٠.
3- أمل دنقل : ندوة فصول يوليو ١٩٨١، ص٢٠٠.

الـشعر كـشف لواقعـه الـسياسي والاجتمـاعي والثقـافي ، فهـو التعبيـر الفنـي والاستجابة الجمالية لمعطيات الواقع المعيش ، فكلما تمثل في الواقع السياسي منـاخ من الحرية التي تشكل حياة المبدع ، ازداد الشعر حيوية وقدرة على الامتزاج بواقعه ، أما إذا لجأت السلطة السياسية إلى العنف ومصادرة الحريات ، والظلم والقسوة كان التراث واحدا من الستائر التي يتخفى خلفها الشعراء هربا من البطش والعنف اللذين تمارسهما السلطة وأجهزة القمع .

والمفكرون في أى عصر هم المعنيون بالعلاقة بالسلطة ، حيث إنهم ضمير الأمة ووجدانها ، والمعبرون الشرعيون عن آمالها وآلامها ، لما لهم من وعى يقتضى الإحساس بحقوق الذات في ظل الواقع المعيش ، والشعراء أكثر المفكرين استجابة وتطلعاً إلى تحقيق العدالة والحلم الإنساني ، واصطداماً بالأنظمة السلطوية الحاكمة ، فكلما أحكمت السلطة قبضتها الحديدية على رعيتها ، لجأ الشعراء إلى ارتداد الأقنعة ، والتخفي خلف الأصوات المستعارة ، لتصبح قناة شرعية يسوقون من خلالها رؤاهم وأفكارهم ، حتى يهربوا من عقاب السلطة .

ويصبح اللجوء إلى التراث رغبة في ربط زمنين متقابلين : الماضي والحاضر ، فيذهب الشعراء إلى إدانة الماضي ونقده بغية إسقاط الإدانة على الحاضر ويكون الإمداد بالتراث دافعاً نحو تنمية روح المقاومة في نفس الرعية واستنهاض هممهم لصد غارات وتفشيه ، عن طريق بعث القيم النضالية التاريخية الزاهرة ، المنتصرة التي خلقت للحضارة والشعوب مكانة رفيعة في المجتمع الإنساني .

التراث حماية من الانكسار :

لقد فرض العصر الحديث على الإنسان مناخاً نفسياً مغلفا بالكآبة والتعقيد والزيف نتيجة للإيغال في الدنية الحديثة ، التي يشعر في ظلها الإنسان بعدم جدوى الحياة والإحساس بعدميتها ، وأبعادها الإنسانية ، من هنا كان " الالتجاء إلى التراث والاحتماء بالتاريخ يعتبر رد فعل طبيعي لحماية الحالة النفسية للأمة من الانكسار والشخصية الحضارية التاريخية من الذوبان في مراحل الواجهة الأولى "[1].

ورغبة الشعراء المعاصرين في استدعائهم للتراث تنطلق من الحاجة النفسية الملحة فهم على وعى بأن التراث يجد فيه المبدع أو الإنسان ما يساعد على امتصاص ثورته النفسية المتأججة ، نتيجة إحساسه بفقر الواقع المعيش ، كما يجد كل منهما – المبدع والإنسان العزاء لكثير من جوانب الفقد .

وفى محاولة مزج الزمنين – الماضي والحاضر –" قد يكثف الشاعر أداءه قليلاً حين يربط بين الحث التاريخي أو الشخصية التراثية فيما يشبه مقارنة نفسية بين الماضي بجلاله وشموخه والحاضر بوهنه واتضاعه"[2].

يبقى الماضي المضيء متكأ يستند إليه الشاعر المعاصر ، ويبحث في أرجائه عما يعيده إلى إنسانيته وطهارته وفطريته ، والتراث يحمل بين جنبيه حرارة المشاعر والأحاسيس في سذاجتها ، وبراءتها ، إنه العالم الذي ينأى عن التعقيد والزيف والانكسار والتمزق العصري ، ففي التراث الطاقة والقدرة على التأثير على نحو جعل الشاعر المعاصر يلجأ إلى استلهامه ، فكان الاستلهام بالنسبة إليه " يمثل صورة احتجاجية على اللحظة الحاضرة التى تعادلها في الموقف اللحظة الغائرة في سرديب الماضي" [3].

1- د. إكرام ضياء العمرى : التراث والمعاصرة ، ص١٠.
2- د. رجاء عيد : لغة الشعر ، (الإسكندرية : منشأة المعارف ١٩٨٥)ص ٢٠١.
3- السابق نفسه .

فيكـون الاتكـاء علـى التـراث عـزاء لـه ، ونوعـاً مـن الاغتـراب ، وشـعوراً بالاستلاب.

التـراث رافـداً معـرفيـا:

يندفع الشاعر المعاصر في كل الاتجاهات ليستقى معارفه ، ويبنى قامته الثقافية الجديدة ، حتى يتكشف ذاته وموقعها في سلسلة الإدراك المعرفي ، فهو مطالب بالوعي الذي يمنحه في أرقى مفاهيمها ، ويصقل موهبته الإبداعية ، ويؤكد الدكتور عز الدين إسماعيل أن " من مميزات الشاعر العصري أنه في حاجة – لكي يبدع شعراً من منظور عصره –لأن يحصل أكبر قدر مستطاع من الثقافة . فالثقافة هى سلاحه الحقيقي والضروري . والتنوع في هذه الثقافة ضرورة بفرضها عصرنا " [1].

ولكي تتنوع ثقافة الشاعر يجب عليه ألا يتقوقع على رافد بعينه ، و" لم يعد يكفى الشاعر المثقف أن يلم بالشعر العربي وحده أو بالثقافة العربية وحدها ، وإنما هو يحس بضرورة أن تمتد الثقافة فتشمل كل ما يمكن أن يوسع من نظرته إلى الأشياء ويعمقها ، ولهذا فإنه يفتح ننفسه للتراث الإنساني كله " [2].

لقد أدرك الشعراء المعاصرون ضرورة اللجوء إلى التراث بوصفه رافداً مهماً ، يساعد على تشكيل رؤى الشاعر المعاصر ، ويسهم في تعميق نظرته إلى الأشياء ، فيراها وهى في حركتها وحيويتها الدائبة ، ويسقط ضوءاً على ظلمات الواقع المعيش، فتتسع حدقتا الشاعر ، والتراث ينطوي على قيم فكرية خلاقة تتجاوب مع الهموم المعاصرة .

1- د. عز الدين إسماعيل : الشعر العربى المعاصر ، ص٣٤.
2- السابق.

ولم ينغلق الشعراء المعاصرون على تراثهم العربي والإسلامي فحسب ، ولكنهم انفتحوا على التراث الإنساني عامة ، ينهلون منه ويتجاوبون معه ، ويسقطونه على واقعهم رغبة في خلق فكر عربي يعبر عن شخصيتهم وواقعهم وثقافتهم .

ويؤكد صلاح عبد الصبور تأثر الشعراء العرب المعاصرين بالشعر الأوروبي الذي حدا بهم نحو التراث ، ودفعهم إليه فيقول :" وقد تكشف لشعرائنا العرب عالم الأساطير الغنى إثر قراءة بعضهم لنماذج من الشعر الأوروبي الحديث ، قد دأبوا على محاكاتها "[1].

ويعد صلاح عبد الصبور من أكثر الشعراء المعاصرين اقتراباً من عالم إليوت ، وتأثراً به .

واندفاع الشعراء المعاصرين نحو إليوت – وانحيازهم التام له جعلهم يخلقون فجوة بينهم وبين المتلقي على نحو يشير إلى تأثيره السلبي في نفوسهم ، فهو الذي دفع بهم في البداية إلى التهافت على التراث الإغريقي وإثقال قصائدهم بإشارات واستعارات منه لا لشيء إلا لأن إليوت قد أمتاح من هذا التراث ، دون أن يأخذوا في الحسبان كون هذا التراث هو تراث إليوت وقرائه ، ومن ثم فهو ليس غريباً على وجدانياتهم ، أما بالنسبة للمتلقي العربي فإن هذا التراث غريب على وجدانه وفكره ، ومن ثم فإنه لم يستجيب له في البداية ، وحدثت فجوة خطيرة بين هذه التقنية الجديدة وبين القارئ العربي ، ثم ضاقت الفجوة مع اتساع دائرة الوعي في التلقي ، ودائرة الوعي في الخلق الفني ، فالعلاقة بين التراث والشعر تمثل موقفا شعريا وجماليا والاستعانة بهذا التراث الأصيل تعين الفنان على بلوغ هدفه ، فنياً وفكرياً معاً ، لأن

1- صلاح عبد الصبور : الأعمال الكاملة ، ص١٤٢.

هذا التراث بما له من جذور عميقة في نفوس الجماهير معين على خلق التفاعل المطلوب بين المبدع والمتلقي "[1] .

التراث تقنية جمالية :

أمام تعقيد الحياة وزحمها وهمومها الجديدة الثقيلة ، التي أثقلت كاهل الإنسان المعاصر بصفة عامة ،والشاعر بصفة خاصة ، ضاق الشاعر بالغنائية والتعبير عن العاطفة الفردية ، التي تجنح نحو الرومانسية بوصفها إطاراً ضم العاطفة الغنائية الذاتية التي هيمنت على الشعر العربي زمناً طويلاً ، وأخضعته لطغيانها لكن العصر الحديث قد فرض هموماً جديدةً وثقافات متعددة ، وحالات من الضياع ، والانكسار ، والتشتت ، وأصبحت الحياة تجرى في اتجاهات متقاربة ، ومتعارضة ، فأصبحت تجربة الشاعر في العصر الحديث أكثر تشابكاً ، وتعقيداً من تلك التجربة البسيطة ، التى تتسع لها القصيدة الغنائية ، وتستوعبها ، فحاول الشاعر المعاصر أن يضفى لوناً من الدرامية والموضوعية على الشكل الفني لتجربته فلجأ إلى تقنيات الفنون الأخرى السردية والدرامية .

كل هذه التكنيكات الفنية الجديدة كان سببها انحياز الشاعر المعاصر إلى التراث الذي دفعه إليه إحساسه " بمدى غنى التراث وثرائه بالإمكانات الفنية ، وبالمعطيات

1- د. عصام أحمد بهى : الحكايات الشعبية في المسرح الشعرى في مصر ، رسالة ماجستير ، مخطوط كلية البنات جامعة عين شمس ، ١٩٧٩، ص٤٢.

والنماذج التي تستطيع أن تمنح القصيدة المعاصرة طاقات تعبيرية لا حدود لها فيما وصلت أسبابها بها " [1].

وعندما يستخدم الشاعر المعاصر المعطيات التراثية فإنه يفتح آفاقاً رحبة أمام تنامي القصيدة ، بحيث يجذب تقنيات جديدة تمارس دورها في تعميق رؤى الشاعر فيجد المتلقي عالماً فنياً يضمه كلما حاول الخروج على جانبي القصيدة – ولذا يتيح هذا الاستلهام للشاعر وللمتلقي الاتكاء على ما تفجره الشخصية التراثية أو الموقف التاريخي من مشاعر ودلالات تحفظ القصيدة نفسها من التسرب في سردية باهتة أو خطابية زاعقة " [2].

والشاعر " حين يستخدم هذه الأصوات يكون قد أضفى على تجربته نوعاً من الأصالة الفنية عن طريق إكسابها في نفس الوقت لوناً من الكلية والشمول بحيث تتخطى حاجز الزمن فيمتزج في إطارها الماضي في وحدة شاملة " [3].

ويؤكد الدكتور طه وادى أهمية اللجوء إلى التراث حيث يسهم في إثراء الأدوات الفنية وتطويرها عند الشاعر المعاصر ، فيقول :" إن " التثقيف بالتراث" والاستفادة برموزه وأساطيره ومعارفه ، يسهم – أيضا – في تطوير فن الشاعر والارتقاء بأدواته التشكيلية ، وقدراته التعبيرية ، والتراث الذي نعنيه هنا هو الذي يمثل كل فا هو مشرق وإيجابي في مواريث الإنسانية جمعاء ، وتجربة الفنان حين تضم هذه المواريث في وحدة تشكلية رحيبة خلاقة توحي بوحدة تاريخ الإنسان ، الذي يتطلع دوما إلى العدالة

1- على عشرى زايد : (استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر المعاصر صـ١٨).
2- د. رجاء عيد : لغة الشعر ، ص٢٠١.
3- د. على عشرى زايد : استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربى المعاصر ، ص١٩.

الاجتماعية والحرية السياسية والوحدة الإنسانية .إن الاستلهام الخصب للتراث يشكل بعض أسرار جودة الصياغة الفنية في معظم الشعر المعاصر "[1].

ويتضح من رؤية د طه وادى حرصه على عاملين مهمين في اكتمال دائرة التوظيف وهما : الاختيار والانتخاب ، ثم الخروج من أسر الإقليمية إلى العالمية ، حتى يؤتى التوظيف ثماره ، فالاختيار سيطرح مجالاً فعالاً أمام الشاعر ويثرى عالمه وأدواته ، والخروج من الإقليمية يجعل الشاعر المعاصر شاعراً إنسانياً في المقام الأول ، يقف مع غيره من شعراء العالم بوصفه جزءاً منه .فيصبح التواصل مستمراً وخلاقاً .

الفصل الثاني

الشخصية وفضاء الرؤية

1- د. طه وادى : جماليات القصيدة المعاصرة ص٧١.